الثورة والاستقلال في الرواية العربية
الأشعة السبعة لابن هدوقة(*) " أنموذجا"

الدكتورة: حياة معاش
قسم الآداب واللغة العربية
كلية الآداب واللغات
جامعة بسكرة– الجزائر

1- توطئة:

إن الثورة والاستقلال يمثلان مركزا يحضر في سائر الأعمال الأدبية، وتعد القضية الفلسطينية القضية الأولى، بل الأكثر وضوحا للالتزام لدى المثقفين العرب، والرواية العربية هي التي يمكن أن تظهر مدى التنوع الإنساني وقيمة هذا التنوع، إذ تناولت هذه القضايا من زاوية مدى تأثيرها على مختلف أقطار العالم العربي، مع التركيز على الظروف المحلية لكل قطر بالذات، وكانت النتيجة هي أدب قصصي واقعي شديد التنوع والغنى في تقاليده وأساليبه(1).

ومفهوم الثورة والاستقلال ارتبط ارتباطا وثيقا بمفهوم الوطن الأرض، الوطن الأم، ومن ذلك قول ابن باديس" من نواميس الخلق حب الذات للمحافظة على البقاء..." فالإنسان من طفولته يحب بيته وأهل بيته، وما البيت إلا الوطن الصغير، فإذا تقدم شيئا ما في سنه اتسع حبه، وأخذت تتسع بذلك دائرة وطنه... وإذا غذي بالعلم الصحيح شعر بالحب لكل من يجد فيهم صورته الإنسانية وكانت الأرض كلها وكنا له، وهذا هو وطنه الأكبر(2).

لذلك فالروائي يحب الأرض الوطن لأنه "يشعر بتعلق عاطفي، وارتباط قلبي بالمحل الذي ولد ونشأ وترعرع فيه، كما يشعر بتعلق باطني نحو أهل ذلك المحل، ونحو جميع الذين عايشهم وعاشرهم وألفهم في صغره وصباه"(3).

وكانت المسارات الاجتماعية والسياسية التي أدت إلى الاستقلال وإلى الثورة في بعض الأحيان شديدة الاختلاف، ينعكس هذا الأمر في الكتابات القصصية، التي تحاول وصف القضايا الخاصة بنضال كل الأقطار في سبيل نيل حق تقرير المصير. فمثلا نبدأ بمصر حيث كانت ثورة عام 1952 ثورة بيضاء لم تُرق فيها الدماء وشكلت موضوعا

لعديد من الروايات، فرواية نجيب محفوظ" السمّان والخريف" تعطي تصويرا تخطيطيا للأحداث التي أدت إلى استيلاء الضباط الأحرار على السلطة، ولكن الرواية تركز اهتمامها على قضايا فساد الطبقة البيروقراطية ومحاولات المصالحة بين القديم والحديث، أما الفترة التي سبقت الثورة، فكانت تعج بالصراع السياسي والاجتماعي وهنا أيضا يقوم نجيب محفوظ الفائز بجائزة نوبل للآداب لعام 1988م بسرد الأحداث في ثلاثيته المشهورة " بين القصرين" ،" قصر الشوق" و" السكرية" وهي روايات مفعمة بالحيوية للصراعات السياسية والاجتماعية والفكرية التي كانت قائمة في مصر في فترة ما بين الحربين العالميتين، وروايات أخرى له تكشف بتفصيل دقيق المسار الجامح المضطرب الذي سار فيه الشعب المصري لتحقيق الاستقلال السياسي، وحجم نتاج نجيب محفوظ في مضمار الفن القصصي العربي قد دفع غيره ممن ساهموا في هذا الميدان الأدبي في مصر وغيرها من الأقطار العربية إلى الظل.

هذا عن نتاج كتاب القصة في المشرق العربي أما إذا أتينا إلى المغرب العربي، فأكثر ما يغلب في نتاجاتهم موضوع النضال من أجل الاستقلال، ففي تونس كتب محمد المختار جنات(المولود عام 1930)" نوافذ الزمن"، كما كتب محمد صالح الجابري (المولود عام 1940) رواية" يوم من أيام زمرة" وكلاهما ترسم صورا مليئة بالحياة للانتفاضات الشعبية ضد الحكم الاستعماري الفرنسي، وفي رواية" دفنا الماضي" (1966م) للكاتب المغربي عبد الكريم غلاب(المولود عام 1917) تجري الأحداث في مدينة فاس أكثر مدن المغرب تمسكا بالتقاليد الموروثة، وعائلة الحاج محمد هي عالم مصغر يكشف عوامل التوتر الكامنة لدى شعب يخضع للسيطرة الأجنبية، كما يكتب رواية أخرى" سبعة أبواب" تعالج بوصف تخطيطي احتجاز الكاتب في السجن دونما محاكمة، والتي امتدت ستة أشهر بسبب مشاركته في النشاطات الوطنية[4].

ومما لا يخفى على قارئ يطالع الأدب الجزائري أن يلحظ فيه خاصية الثورة بوصفها هاجسا أساسيا يحرك عملية الكتابة أو هي تتحرك فيه، والواقع أن هذه الظاهرة لا تدعو إلى الغرابة مادامت الجزائر حديثة عهد بحرب التحرير ومادام طابع عصرنا كله تحريريا[5]. لذلك يتخذ الكاتب الجزائري الطاهر وطار من النضال ضد الحكم الفرنسي في حرب التحرير من أجل الاستقلال موضوعا أساسيا لروايته" اللاز" وهو اسم بطلها وصدرت عام 1974م تطرق إلى موضوع يعتبر نمطا للمشاكل المألوفة في البلدان

العربية في فترة ما بعد الثورة، و" اللاز" هو الابن غير الشرعي لزيدان، وهو شيوعي يقود خلية من المقاتلين في المناطق الجبلية، أما اللاز الذي لم يكن يعرف من هو والده، فهو يعمل لصالح المقاتلين في أحد المعسكرات الفرنسية، إلا أن أمره يكتشف فيهرب إلى موقع اختفاء والده، ولكنه يكتشف أن والده على وشك أن يحكم عليه بالموت نظرا لأنه يرفض الامتثال لأمر الأعضاء المسلمين في منظمة التحرير الوطنية للتخلي عن معتقداته الشيوعية، وبذا فإن هنالك حزازات ما تزال قائمة على الرغم من ذلك الكفاح الدامي المطول من أجل الاستقلال[6].

وإلى جانب الروائي الطاهر وطار نجد الكاتب الجزائري عبد الحميد بن هدوقة الذي خصصناه بالدراسة من خلال مجموعته القصصية" الأشعة السبعة" وهذا ما سنتبينه من خلال ما سيأتي:

2- المدونة:(الأشعة السبعة):

إن مدونة الأشعة السبعة طبعت مرتين، الطبعة الأولى كتبت والجزائر تحيا في اللهب أي فترة الاستعمار الفرنسي البغيض، وقد طبعت بدار نشر تونسية(الشركة القومية التونسية للنشر والتوزيع في بدايات سنة 1962 وتحوي إحدى عشرة قصة مرتبة في المدونة كما يلي: الأشعة السبعة، المسافر، يد الإنسان، ابن الصحراء، ثمن المهر، منتصف النهار، الصداقة، عمري الحقيقي، البطل، الأوجه الخلفية، دمعة قديمة.

أما الطبعة الثانية والتي بحوزتنا، فقد أعاد الكاتب طباعتها في الجزائر(الشركة الوطنية للنشر والتوزيع 1981) والجزائر تعيش وتتنفس الحرية بكل ذرات وجودها، وتحوي ثلاث عشرة قصة، أي أضاف إلى الإحدى عشرة قصة الأولى قصتان هما" حلم الصيف" و" الوصية" وذكر ابن هدوقة في مقدمة كتابه(الأشعة السبعة) أن المسافة الزمانية التي تربط أول قصة من هذه المجموعة وآخر قصة تتجاوز العشرين سنة، كما ذكر مجموعة من الدوافع التي جعلته يعيد طباعتها من جديد، وقد مضى على نفاذ الطبعة الأولى أكثر من خمس عشرة سنة[7].

جمع الكاتب في مدونته قصصا تعالج مواضيع جزائرية وتونسية وهذه الالتفاتة من قبل هذا الكاتب الروائي الجزائري هو ما يؤكد طموحه إلى وحدة العروبة، سواء على المستوى الإقليمي أو مستوى الوطن العربي الكامل الذي يرى فيه أمرا مصيريا، ويؤكد أن الوحدة حتمية تاريخية، ومستقبلية معا للشعوب العربية، فهو حمل على عاتقه هذا

المشروع الذي تمنى له أن يتحقق على أرض الواقع؛ هذا ما سعى إليه من خلال قصة "حلم الصيف".

3- ملخص قصة" الأشعة السبعة"

القصة تحكي قصة ولد أبكم أصم، عجز الأطباء عن شفائه ولا يزال الوالد يدعو له كلما " ذهب إلى المحراب حيث السكينة السماوية تعيد القلوب البائسة بعض ما فقدت من أمل وكان يقول في صلواته ودعواته متوسلا لابنه: يا رب لا أسألك إنطاقه، ولكن أسألك أن تمكنه من فعل عقباه الخير والفلاح".

هذه هي الجملة التي كان الوالد يقولها كلما أحس بانقباض، وللولد أم لم يرها منذ كان صغيرا، وكان بجوار بيتهم بركة يخشاها سكان القرية جميعا؛ لأن فيها وحشا عملاقا يختطف العذارى. لكن الولد الأبكم لم يخف منها وأصر على الذهاب هناك للتأمل ودفعه فضوله إلى رمي سبع حجرات الواحدة تلو الأخرى لتتشكل بذلك سبع دوائر، فتخرج شمس ساطعة ذات سبعة أشعة، والسر يكمن في رمي تلك الحجرات فكلما رماها كان يسمع صوتا دافئا حنونا مألوفا لديه يحس من خلاله برجفة تتبعها سكينة لم يحس بها منذ أن غادرت أمه الحياة، فسمع صوتا خافتا يقول: إني عائدة.

استمر الولد بالتردد إلى تلك البركة ليهتدي في الأخير إلى إحضار سطل فيملؤه بالماء، ليسقي به جوانب البركة التي كانت جافة في البداية، فتزهر فيما بعد.

وفي هذا الوقت بالذات يستحضر السارد قصة أم الأبكم حينما كان صغيرا لا يتجاوز العامين حضر هو وأمه إلى البركة فنزلت أمه الجميلة لتستحم وتأخذ بعضا من الماء، ولكنها لم تخرج؛ إذ غاصت في البركة وابتلعتها، فصرخ الصبي، صرخة واحدة، أفقدته الكلام.

وفي يوم من الأيام كان الولد الأبكم جالسا كعادته عند البركة يرمي الحجرات، وإذا بسرب من الطائرات يمر فوقه متبوعا بسرب من الغربان، وإذا بقنبلة تسقط في البركة، وسمع دوي انفجارها وإذا بحسناء جميلة تصرخ منها، فينطق الولد قائلا:" أمي".

4- العنوان:

تعد دراسة العنوان، سواء في القصة أو في الشعر معلما بارزا لمعرفة ما مدى قدرة مبدع النص على اختيار العنوان المغري والممثل لنصه على خلفية معانيه ودلالاته المختلفة، بل حتى مرجعياته وأيديولوجياته لهذا السبب عدّ من أهم عناصر النص الموازي

(Le paratexte) التي تسيج النص وكذا المدخل الذي يلج من خلاله القارئ إلى النص، إذ يحتل العنوان الصدارة في الفضاء النصي للعمل الأدبي فيتمتع بأولوية التلقي[8].

والمدونة التي بين أيدينا عنوانها" الأشعة السبعة" وهو في الحقيقة عنوان لقصة واحدة من مجموع ثلاث عشرة قصة في المدونة، إلا أن الروائي رأى في العنوان شموليته؛ والدلالات المتكاثفة الغالبة في أرجاء المدونة تشظيا للعنوان، فكان لزاما علينا تفكيك شفرات العنوان لتجاوز الغموض، والسؤال المحير: لما هذا العنوان دون غيره؟ هذا ما سنحاول الإجابة عنه من خلال تتبع تناسل الدلالات عبر جسد النص.

إن الملاحظة الأولى التي تشفع للكاتب اختياره للعنوان دون غيره من العناوين كونه نحى منحى من سبقوه في عنونة كتبهم ومنهم كليلة ودمنة لابن المقفع، فكليلة ودمنة هي إحدى القصص الموجودة في الكتاب وأيضا كتاب العين للفراهيدي الذي اختار حرف العين، دون غيره من الحروف، وهذا من باب تسمية الجزء بالكل.

الأمر الثاني مرتبط بالثورة والاستقلال، مرتبط بالأرض الأم، بالشعب، بالكفاح، بالنضال من أجل الاستقلال.

إن لفظة الأشعة لا تعدو أن تكون إشارة ضوئية ومؤشرا دالا على كل ما ستحتويه هذه اللفظة من تشجير دلالي، والأشعة جمع شعاع والشعاع النور الساطع، البرق الخاطف، الضوء المنير... أي أن هذا الشعاع ينجر عنه إشراق جديد، بزوغ فجر جديد، حياة بعد موت، نهار بعد ظلام.

فالكاتب ينتظر هذا اليوم، يوم النصر، يوم الحرية، فالجزائر عاشت حقبة مظلمة في فترة الاستعمار، والثورة كانت حتمية لنيل الاستقلال.

لكن هذه الأشعة سبعة، ولم يقل ثمانية أو تسعة فلهذا العدد وقع في ذهن القارئ، فكلما تكرر في النص يستحضر السنوات السبع وهو عمر الثورة(بالتقريب) التي يلعب فيها السارد دور الملاحظ والشاهد في نفس الوقت، فهو عايش الثورة وكتب قصة" الأشعة السبعة" وهو شاب كما ذكر في مقدمة مدونته وأعماله الأدبية كما قيل عنها" اجتماعية وواقعية صافية، وفيها شيء من الرومانسية والوجودية وإنها لا تخلو من الشاعرية والرمزية"[9]. وقد قال عنه الناقد الفرنسي جان بون إيفري" إنه جزائري حتى النخاع، لأنه عكس هموم الطبقات والشرائح الاجتماعية وطموحاتها عبر أعماله الأدبية شعرا ورواية"[10].

الثورة مضت ولكنها بقيت في ذاكرة الكاتب تمارس حضورها ولكي يخلق جوا آخر معادلا للحقيقة أو للواقع" لعبت الخرافة دورا خياليا يجعل هذا المعادل المكتوب في الخطاب القصصي يتجرد من المكان والزمان ليسبح في مساحة فنية لا تحيل إلى واقع الحرب بشكل مباشر "(11).

لذلك كان للعدد سبعة دوره المتميز خاصة وأنه تكرر أكثر من مرة، فأضفى هالة أسطورية على النسيج القصصي، لما فيه من السحرية فللرقم سبعة حضور في حياتنا وعبادتنا فالسموات سبع والأراضي سبع، والأيام سبعة، وطبقات الذرة سبع، ونحن نسجد لله على سبع ونطوف حول الكعبة سبعا ونسعى بين الصفا والمروة سبعا، ونرمي إبليس بسبع وأمرنا بسبع، ونهينا عن سبع والموبقات سبع، والذين يظلهم الله في ظله سبعة، وأبواب جهنم سبعة، ونستجير بالله منها سبعا، وأنزل القرآن على سبعة أحرف... وأشياء يصعب حصرها بشكل يضع هذا الرقم على قمة الأرقام بعد الرقم واحد الذي يعبر عن وحدانية الله تعالى، فهو الواحد الأحد الفرد الصمد(12).

بهذا يشكل الرقم سبعة موضوعا عجائبيا تحفل به النصوص باعتباره موضوع قائم بذاته له مرجعية تاريخية في الفكر البشري مدعما بالفكر العقائدي الذي بنيت عليه كثير من المعتقدات الدينية القديمة والإسلامية بخاصة.

إضافة إلى الرقم سبعة نجد في النص الوحش الذي يسكن البركة ويختطف العذارى أو العرائس وهذا النوع من القصص الشعبي متداول في الأوساط الشعبية عند اليونان قديما الذين كانوا يرمون أجمل فتاة في النهر قربانا كي يفيض، فتكون هذه القصة " كعلامة نصية متكررة في النصوص القصصية الشعبية المتداولة... والمتعامل مع هذه النصوص تشده هذه العلامة المتلاحقة وتفرض عليه سلطة تجبره على الحفر في النص وفي خارج النص باعتبار أنه علامة مرجعية تشير لا إلى نفسها الحالي ولكن إلى نفسها القائمة في زمنها القائم الذي كان فتآكل الزمن وبقيت تشكل دالة إيحائية مشفرة تمتنع أحيانا عن البوح، وتنقاد في أحايين أخرى طائعة، تقودنا إلى جذورها الثقافية الضاربة في عمق التاريخ"(13).

أما قصة الغربان فهي نذير شؤم عند البعض، وفي موروثنا الثقافي والتاريخي مؤشر دال على أول جريمة قتل في التاريخ الإنساني قصة قابيل وهابيل. أيضا قصة

الأبكم الذي نطق في الأخير وقال أمي أي عودة الأم في النهاية، عودة الوطن، عودة الأرض.

ختم الكاتب قصصه بقصة" الوصية" التي صور فيها أبا في المستشفى يتغذى بالسيروم وأبناءه من حوله يتحاورون حول التركة، إلى أن يقول لهم في الأخير بأنه لم يترك لهم سوى" أم" فهل تقسم الأمهات؟

وهذه القصة كتبها والجزائر تحيا الحرية والاستقلال كتبها وهو كهل وأدلى برأيه صريحا بما يتعلق بالتفكير في تقسيم البلاد، فهو يستنكر الفكرة أصلا؛ لأن الجزائر أم الجميع والأم إذا قسمت ضاعت.

وعموما فإن المسرودية التي أوردها الكاتب في الإحدى عشرة قصة الأولى بشتى أحداثها وأوصافها وتحليلاتها ذات أساس واقعي وهو الثورة أو الحرب، إلا أنها كما تقدمها القصة مفارقة للواقع في العديد من النقاط أو لنقل هي واقع فني سيما أنها تعتمد على الخيال الأسطوري.

أما قصة" حلم الصيف" و" الوصية" اللتان كتبهما ابن هدوقة والجزائر تحيا الاستقلال فعبر عن رأيه صراحة سواء في الوحدة العربية أو في فكرة تقسيم الوطن.

الهوامش:

(*) عبد الحميد بن هدوقة: أديب جزائري ولد سنة 1925 بالمنصورة، ثم غادر الجزائر إلى فرنسا سنة 1958 ثم رجع إليها بعد الاستقلال، تقلد عدة مناصب منها: مدير المؤسسة الوطنية للكتاب، رئيس المجلس الأعلى للثقافة، عضو المجلس الاستشاري الوطني ونائب رئيسه توفي في أكتوبر 1996م.

– له مؤلفات شعرية ومسرحية وروائية عديدة منها: رواية ريح الجنوب، رواية الجازية، والدراويش، ظلال جزائرية(مجموعة قصصية)..

1– ينظر: روجر آلن: الرواية العربية، مقدمة تاريخية ونقدية، ترجمة: حصة ابراهيم المنيف، المجلس الأعلى للثقافة، المشروع القومي للترجمة، 1997، ص 118، 119.

2– عبد الحميد بن باديس: خطب ومقالات، جمعها محمد الطاهر فضلاء تحت عنوان: قال الشيخ الرئيس عبد الحميد بن باديس، نشر مطبعة البعث، قسنطينية، الجزائر، 1968م، ص 87.

3- ساطع الحصري: آراء وأحاديث في الوطنية والقومية، مطبعة الاعتماد، بيروت، ط3، (د.ت)، ص 07.

4- ينظر: روجر آلن: الرواية العربية، ص 119 وما بعدها.

5- نظر: مخلوف عامر: الرواية والتحولات في الجزائر(دراسة نقدية في مضمون الرواية المكتوبة بالعربية)، دراسة، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 2000، ص 19.

6- ينظر: روجر آلن: الرواية العربية، ص 121، 122 وللمزيد حول الطاهر وطار ينظر كتاب محمد مسايف" الرواية العربية الجزائرية الحديثة بين الواقعية والالتزام"، الدار العربية للكتاب، الجزائر، 1963، ص 25 وما بعدها.

7- للاطلاع أكثر ينظر: الأشعة السبعة لعبد الحميد بن هدوقة، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1981، الجزائر، ص 06.

8- ينظر: أحمد قنشوبة، دلالة العنوان في رواية ذاكرة الجسد لإحلام مستغانمي، محاضرات الملتقى الثاني(السيمياء والنص الأدبي)، ع15- 2002، منشورات جامعة بسكرة، ص 81.

9- منتديات الأغواط /www.laghouat.met/ub

10- نفسه.

11- مخلوف عامر، مظاهر التجديد في القصة القصيرة بالجزائر، دراسة، منشورات اتحاد الكتاب العرب، 1998.

12- ينظر: عبد الدائم الكحيل، آفاق الإعجاز الرقمي في القرآن الكريم. www.alargam.com/koheal/book6/index

13- عزوي محمد: الدلالات الإيحائية في النصوص القصصية الشعبية، دراسة في تكرار علامة الثعبان، الملتقى الثالث السيمياء والنص الأدبي، جامعة بسكرة، 2004، ص 191.